حاضر العالم الاسلامي

التطور الاجتماعي (١)

اثر التعليم الغربي في البلدان الشرقية

كفى دليلاً على ما لهذا التطور الذي نشهده اليوم في الشرق من الشأن والعظمة، ما هو مخيّل في افق الحياة الشرقية من ضروب الانقلاب، وتجدد المنازع والانتقال من هيئة الى هيئة، اذ ان المؤثرات الغربية الفاعلة فعلها العظيم في تحول اشكال الحكومات والاوضاع السياسية، والمعتقدات الدينية، والتطورات الاقتصادية، هي فاعلة ايضاً في اطوار النظام الاجتماعي، وليس شأنها في هذا المقام بأقل منهُ في سائر مواضع الانقلاب الشرقي. وقد اتينا في الفصل الثالث من هذا الكتاب على بيان موجز عما للمؤثرات الغربية من الشأن في الاطوار والتارات التي تقدم الكلام عليها. وغايتنا في هذا الفصل ان نبسط الكلام على التطور الاجتماعي الحادث اليوم في العالم الاسلامي

لا مراء في ان هذا التبدّل خطير عظيم، على كونهِ لا يخلو من غموض يظهر في بعض المواضع، خلافاً لسائر آفاق الانقلاب الآذنة بكل جلاء ووضوح. والسبب في هذا الاستبهام هو ان للعادات المتأصلة والتقاليد المتمكنة في حياة الفرد والاسرة والجماعة في الشرق سلطاناً قوياً وشوكة نافذة، يحملان غير المتعمقين من اهل الاستقصاء في شؤون الشرق على ان يجنحوا الى القول المؤكد بأن هذه العادات والتقاليد لم تبرح على حالها القديمة من الرسوخ وشدة التأثير، بحيث على زعمهم، لم يتناول التطور الحقيقي داخلها مثلما تناول خارجها، ولا تغلغلت روح الانقلاب في باطنها كما احاطت بظاهرها، ولو بلغ الانقلاب المادي وتحول ظاهر الحياة ما بلغاه. على ان هذا الرأي الذي يقول بهِ هؤلاء القوم الذين لا يعولون على التحقيق في المسائل، هو مما لا يجيزهُ اهل العلم والبحث ذوو النظر النافذ في اسرار الانقلابات، وان الشرقيين انفسهم ليستهزؤن بهذا القول وامثاله،

---

(١) هذا الفصل من كتاب حاضر العالم الاسلامي الذي وضعه الدكتور لوثروب ستودرد الاميركي ونقله الى العربية حجاج افندي نويهض بلغة فصيحة وعلق عليه حواشي مسهبة فريدة الفائدة العالم المحقق الامير شكيب ارسلان

و يفندونهُ بالحجة والبرهان ، و يؤيدون حدوث التطور الاجتماعي ونتائجهُ بسنة التحول التي لن يجد لها الناس تبديلاً

واهل الشرق لعمري على حق فيما يقولون و يبينون ، فان قيل ان الشرق صاعد بمعراج الترقي مادياً ، من حيث هو لم يزل على حالهِ من السكون والجمود والغرارة من الجهة الاجتماعية فانما ذلك تجاهل وتعام عن الواقع ، ومكابرة في الحقيقة التي بات لا يختلف في ثبوتها من اهل الاستقصاء الصحيح اثنان ، اذ ان الانظمة الاجتماعية تتبدل ابداً بالمؤثرات المادية الحسية ، تبدلاً لا يقل عن ذاك الذي يتم بقوة المؤثرات الادبية المعنوية ، والآراء والمجردات . ايستطيع من ينظر في ما دون العرض الغاشي ، نظر المتأمل المتبصر ، ان ينكر ما للقطر الحديدية والبرُد والاسلاك البرقية من قوة العمل والتأثير في سير الترقي الاجتماعي والادبي والحضاري ؟ اما من شأن ، اجتماعي ومادي يأتي ، لما يقتبسهُ الشرق من الغرب و يأخذ عنهُ من فئات المحدثات والمخترعات ، بين ثمين ونافه ، وخطير وحقير ، وضار ونافع ؟ . ايخلو من معنى كون قبر صاحب الرسالة الاسلامية في المدينة المنورة غدا كالكوكب تتلألأ فيهِ المصابيح والاضواء الكهربائية ، وان الرقاع البريدية المصورة صارت تباع على ابواب الكعبة المقدسة في مكة المكرمة ؟ اجل ، قد يستغرب المدقق اول الامر من ان المؤذن الضحى يذهب الى المسجد راكباً قطاراً كهربائياً ، وان التاجر المسلم اخذ يخرج من مخدع حرمهِ فيتناول صحف الصباح فيقف على انبائها واخبارها ، ثم يمتطي سيارةً الى بيت تجارتهِ ومعهُ سجادة الصلاة . ثم اذا ما فرغ من اقامة الصلاة انقلب تارة الى تلفونهِ وطوراً الى آلة الاملاء يفرغ فيها نصوص الرسائل والكتب التجارية فلماذا نحن نسلم بان للمسجد ومخدع الحرم وسجادة الصلاة شأناً مؤثراً في حياة المسلم وتكييف معيشته على الجملة ، حينما ننكر ما لجميع المحدثات والمخترعات التي اخذها الشرق عن الغرب من التأثير في تكييف حياة المسلم الاجتماعية ؟ اضف الى هذه الاسباب الحسية المادية ، الاسباب الادبية المعنوية مثل العلوم الطبيعية ، والوسائل الغربية الحديثة التي جعلت للتعلم والراحة ، وتحرر المرأة نوعاً ما ، تجد ذلك للحال اهمية التطور الاجتماعي الحادث اليوم ، واتساع افقهِ

على ان هذا التطور الاجتماعي قد اتسع نطاقهُ في الاقطار الشرقية التي هي اكثر تعرضاً من سواها لتيار المؤثرات الغربية وكان مبدأ ذلك منذ نحو من نصف قرن ، لما عاد المستشرق المنغاري نمساري الى القسطنطينية سنة ١٨٩٦ بعد غيبة من الزمن طالت

اربعين سنة ، دهش حقًّا مما شاهدهُ من عظيم التحول والانقلاب ، والاستانة عهدئذٍ راسفة بالاغلال الحميدية ، فقال : « عند ذلك طفقتُ اسائل نفسي أهؤلاء يا ترى هم الترك الذين رأيتهم سنة ١٨٥٦ ، وكيف قد تمت جميع هذه التطورات الكبرى ؟ ولشد ما كان عجبي لما اخذت اقلب نظري في مظاهر المدنية وصورها فرأيت المباني الحجرية الجديدة ، قد قامت مقام الخشبية القديمة ، والاسواق ، والشوارع ، دبت فيها عوامل الحياة دبيبًا ، بفرت فيها المركبات المزينة تجرها الجياد المطهمة ، والقطر الكهربائية تنساب في جميع الانحاء ، كل ذلك مما لم ارهُ في مثل هذه الاسواق والشوارع وهي اذ ذاك مختلط تزدحم فيهِ الدواب والعجلات القديمة الطراز . وسمعت جلجلة الآلات المتحركة تخالطها اصوات المؤذنين الذين يجأرون الله من على رؤوس المآذن. فظهر لي من جميع ما شاهدت وسمعت ، وعرفت وخبرت ، ما هو مناقض للقول المأثور ان « لا بدعة في الاسلام » . وقد كان دهشي اشد وعجبي أبلغ لما دخلت المنازل والبيوت فلم يكن يوسعني سوى الاعظام والاكبار ، ليس لما شاهدتهُ من كيفيات التحول الظاهرة فقط ، بل ايضًا لما هو اجل قدرًا من التطور المعنوي الكبير . فبدا لي ان طبقة الافندية (اي المتهذبة) في الاستانة قد تبدلت من حال الى حال ، وانتقلت من دور الى دور ، في مجتمعها وطرازها الخارجي وطرق اتصالها بالغربيين »

ويعظم تعجبي شأن الارتقاء الداخلي كما يعظم شأن الارتقاء الخارجي ، في الطبقات التركية التي تناولها التهذيب والتعليم ، فقال في هذا المعنى : « قد غدا التركي اليوم يرتاح الى العادات والآداب الغربية ارتياحًا كبيرًا مشهودًا ليس في المظاهر والصور الخارجية فقط ، بل في اسلوب المعيشة المنزلية ايضًا ، وذلك من صفة الاثاث والمتاع ، وآداب المائدة ، واحترام المرأة ، وغير ذلك . ان هذا الطور الجديد جليل الشأن ، لانهُ معلوم ان الشعب الذي يقبل على تشرب العوامل وقبول المؤثرات الغربية السائغة الى الترقي العقلي ، عند ما يصغوا عتقادهُ بأن هذه المؤثرات انما هي صالحة لهُ ، لا يستطيع الاقلاع عن مألوف عاداتهِ الثابتة الصيغة ، المتأصلة في مزاجهِ وطبيعتهِ ، الاَّ بشق الانفس . والترك قد لقوا الشدائد في هذا السبيل ، فذللوا العقبات ، وتغلبوا على المكاره ، حتى ضربوا من التجدد بسهم وافر . ورأيت ان الشعور الشديد بضرورة ملابسة الحضارة الغربية والتحقق بها ، قد عم المجتمع التركي بأسرهِ حتى رجال الدين . ولكن جماعة أهل

الرأي على اختلاف في كيفية التطبع واسلوبه ، فبعضهم يبتغون اعطاء ما يودون اخذه عن الحضارة الغربية صفة وطنية وصبغة قومية ، والبعض الآخر على الضد من هؤلاء ، اذ يبتغون انتحال تهذيبنا العقلي على علاته . ويأبون كل تكييف لهُ ولو قليلاً »

والامر الاهم هو ما شاهدهُ ثمباري من شأن النساء المخدرات القابعات في اكسار بيوتهن ، وقد تغيرت الآن حالهن وتحولت صور حياتهن الى حد يقضي بالعجب . قال ثمباري : « وازيد القول تأكيداً ان المرأة التركية قد تبدلت اساليب حياتها تبدلاً شاملاً عما مهَّد كل اصل قديم خلال الاربعين سنة الاخيرة . ثم ان هذا التطور قد تمَّ امرهُ بسببين : الاول اعتقاد الترك بان التجدد ضروري لهم في هذا العصر ، والثاني الضغط الشديد الطاريء من الخارج » . واذ لاحظ ثمباري انتشار تعليم البنات وزيادة نصيب المرأة في القيام بتدبير الحركات الاصلاحية وتنظيم الدعوات وبثها في هذه السبيل ، قال : « ان هذا لامر حيويٌّ للامة لانهُ متى ما شرعت المرأة تقوم بواجباتها في الحياة المنزلية بصفة كونها عاملاً من عوامل الارتقاء الحديث ، فان الاصلاح الحقيقي لابد لهُ من ان يثمر ثمرهُ في المجتمع والدولة والحكومة »

ويبين « خوجه بوخش » ، المسلم الهندي الحر ، وهو من اهل الاطلاع الصحيح على شؤون بلاده ، ان الحياة الاجتماعية في الهند غدت في تطور كبير وذلك بسبب ما تشربتهُ من المؤثرات والعوامل الغربية ، كما في الحال في تركية ، ويوضح خطورة هذه الادوار الشديدة التي لابد من اجتيازها ، ادوار الانتقال من حال الى حال ، والخروج من القديم والولوج في الجديد . وهو متشائم من هذا ، لانهُ يعترف بان « دور التطور انما هو بحكم الضرورة الى حد معلوم ، دور فساد في الآداب ، وانحطاط في الاخلاق ، وعبث بالدين ، مما قد يحسبونهُ عرضاً ويزول ، ومرضاً وبرأ ، ولكن لا مبرىء لهذا سوى كرور الايام » ولكن هذا الخبير الكبير ، مع علمهِ بجميع ما ذكر فانهُ لا يقلل من خطورة الدور الحالي الذي اقل ما يقال فيهِ انهُ هادم لاركان النظام الاجتماعي القديم هدماً فقد قال : « ان اوضح نتيجة لهذا التطور هي تزلزل نظاتنا القديم القائمة عليهِ حياتنا المنزلية ، وعاداتنا الاجتماعية . وسبب هذا التزلزل انما هو تيار الحضارة الغربية ، وهذا الامر الواقع اظهر ما يكون في موضعين : معتقداتنا الدينية ، وحياتنا الاجتماعية . ان النظام القديم ، على جميع عيوبهِ كان مشتملاً على فضائل جمة وافية » . اما اليوم فقد انهار هذا النظام القائم على ضيق المدارك

المستشرق المجري شيبري من ترجمته في مقتطف نوفمبر سنة ١٩١٣
مقتطف مايو ١٩٢٦
امام الصفحة ٥٢٤

لا بل على التظاهر بخوف الله وطاعته ، وحلّ محله « استقلال فكري عملي غريب . فعفت صفة احترام الماضي ، واكرام الكبار والشيوخ ، واعتبار قال فلان وروى فلان . كان الاب في ظل النظام القديم ربّ العترة ووليها الحميم ، وكانت كلمتهُ فيها شريعة مطاعة وامراً مقضيًا ، وكان حارس مقامها وراعي حرمتها ، وحافظ شأنها . اما الآن فقد اصبح مجرداً من جميع المنزلة التي كان عليها من قبل ، وراح اصغر فرد من افراد الاسرة يبتغي الاستواء معهُ في كل شأن من الشؤون ، وينازعه السيادة في كل امر من الامور»

ويأسف المستر بوخش اسفاً لما هو منتشر من تيار الاسراف والتبذير والانغماس في الترف، وذلك ولا شك ناشئ عن اقتباس عادات الاوربيين وتقليدهم في جميع اساليب المعيشة تقليداً اعمى جامعاً للضار والفاسد والغث والسمين . ثم يسائل المستر بوخش نفسهُ: « ماذا لعمري تم في الهند ؟ اننا قد اتخذنا ازياء اوربية في لباسنا ، واساليب اوربية في معيشتنا ، ولم نكتفِ بذلك بل جاوزناهُ الى عادات شرب الخمر والمقامرة والميسر، ولكننا لم نتخذ شيئاً من الفضائل الغربية ، فيجب مداواة العلة قبل استفحالها وتطبيب السقم قبل الاعضال . يجب علينا ان نتعلم من اوربا ولكن دون ان نهدر في سبيل ذلك كينونتنا الادبية ووجودنا المعنوي . اننا لم ننتبه الى الخطر الذي حاق بنا فسرنا في التقليد سير ضلال ، وجلّ ما حصلناهُ اننا خضنا خوضة قليلة في التاريخ الانكليزي والاوربي ، ثم طفقنا نزدري ديننا وآدابنا وتاريخنا وتقاليدنا . ولم ندرس ماضينا ولا اطلعنا على ابناء حضارتنا ولا بنينا ركناً جديداً ، ولا شيدنا لمجتمعنا قواماً قويماً حديثاً يثبت بهِ غير متزعزع على صروف الدهر وتقلبات الازمان . وعلى الجملة فاننا قد افسدنا حياتنا افساداً من حيث لم نباشر لذلك اصلاحاً »

ويؤكد المستر بوخش القول مثل ڤمباري، ان المرأة الهندية سائرة في سبيل التحرر، اذ انقضى العصر الذي كانت هي فيهِ سلعة تباع وتشترى « فصارت المرأة المسلمة اليوم في الهند تعلم وتهذب على ازدياد . وغدت تعرف حقوقها وتحسن الدفاع عنها . نعم ان نظام « البردة [1] » لم يزل شائعاً ولكنهُ ليس من الشدة وايجاب العزلة كما كان منذ خمسين سنة خلت ، بل انهُ اوشك يسقط ويندثر ، وشرعت النساء يتدرجن في نيل حقوقهن الى ان يبلغن اليوم الذي يدركنا فيهِ السوي الكامل لتحرر المرأة الشرقية . كانت نساء

(١) البردة بلغة اهل الهند معناها الستر يمد للمخدرة في ناحية من المنزل

بلادنا منذ اربعين سنة موضوع الاحتقار بل خشونة المعاملة من ازواجهن . اما اليوم فقد تبدلت حالهن كثيراً ، و بتن يعملن لنيل جميع حقوقهن ، واعتزاز مقامهن

بهذين البيانين — الموصوف بهما التطور الاجتماعي في الشرقين الادنى والاوسط — ندرك ماهية الانقلاب الحادث اليوم في الشرق . ثم ينبغي لنا ان نذكر ان هذين الكاتبين قد وصفا حال الطبقات الراقية المتهذبة في المدن والحواضر الكبرى ، والحقيقة ان الاختبار صار سيراً عظيماً وانبثاثاً شاملاً ، في جميع آفاق المجتمع ، متناولاً طبقات الامة الواحدة بعد الاخرى ، وتراهُ دائماً على اتساع وامتداد

ان انتشار التعليم الغربي في الاقطار الشرقية خلال بضعة العقود الاخيرة ليدعو للاعتبار لانهُ قد نقض ما هو معهود في الشرق منذ القديم من نظم التهذيب والتعليم . فقد كانت اصول فن التعليم الجارية على سنن التقليد في جميع الشرق ، من مراكش حتى الصين ، لا تخرج عن حد تحنيط الكتب الدينية والاسفار المقدسة تحنيطاً مقروناً بتعليم فروض الدين وممارسة شعائره . وكان الطالب المسلم او الهندوي يقضي سنين عديدة يتلو على معلمهِ او مدرسهِ فصولاً من الكتب الموضوعة بالعربية الفصحى او السنسكريتية ، الكتب التي لا يستطيع ادراك معاني عباراتها وتراكيبها ، ولا فهم اغراضها ومدلولاتها ، فكان نظام التعليم على هذا النمط حائلاً شديداً دون اتساع المدارك العقلية ، فتتبلد القوى الدماغية جميعها ما عدا قوة الذاكرة ، وتذهب قوة الابتكار العقلي

ولم يبرح هذا النظام الفاسد متبعاً حتى اليوم في بعض الشرق ، وما انفكت الملايين من النشء الشرقي تفني الاوقات الثمينة في معاناة التعليم على هذا المنوال الحائل دون نمو القوى العقلية والادراكية . على ان نظاماً جديداً شرع يماشي ذاك القديم منازعاً لهُ وملاشياً اياهُ وهو يشيع و ينتشر في جميع المحيط التعليمي ، من كتاتيب الاطفال حتى الجامعات والكليات الكبرى ، فصار الناشئ الشرقي يرتضع افاويق العلوم على مناهج غربية صحيحة ، وهذه المشآت العلمية الحديثة الطراز هي على ضروب مختلفة . فهناك الى جانب المدارس والكليات والجامعات — التي تعلم تعليماً حرًّا وتعدُّ الطلاب للقيام بالخدمة الحكومية او المهن الحرة — عدد كبير من المدارس الصناعية والزراعية تخرج للشرق حذاق الفنيين والزراعيين والمهندسين ، ومدارس دور المعلمين تعد المعلمين اعداداً حسناً يتأهلون بهِ لتعليم النشء المقبل وتثقيف عقولهم على الاصول الصحيحة والاساليب السليمة .

والمدارس الاميرية والخاصة لا تني في توسيع التعليم على الطراز الغربي وفي زيادة نشره في الشرق . وقد كان من شأن جميع الحكومات الاوربية الاخذ بنصرة التعليم الغربي في الاقطار الداخلة في سيطرتها وحكمها ، ولا سيما الحكومة البريطانية في الهند ومصر بينما هناك البعثات التبشيرية النصرانية المختلفة قد انتشرت وانبثت في آفاق الشرق ، وانشأت عدداً كبيراً من المدارس والكليات ، وبينما كثير من الحكومات الشرقية مثل تركية والحكومات الوطنية في الهند باذلة غاية المستطاع لنشر التعليم الغربي في شعوبها ورعاياها نشراً متوالياً مباركاً

على ان النتائج الحاصلة الى اليوم ليست غاية في الكمال المطلوب . ولا غرابة في ذلك لأن الدور دور تطور وانقلاب ، وتغير وتبدل ، ولان التقاليد الفاسدة المتسلسلة من ماضي الاجيال ما انفكت تعترض جهد الاقوام الساعية بجد في سبيل تحرير التعليم من جميع النقائص التي لم تزل عالقة به . لهذا السبب الجدير بالاعتبار نرى سواد الطلاب الشرقيين الى اليوم ، اميل الى الاعتماد على ذاكرتهم وحافظتهم ، منهم الى الاعتماد على عقولهم وقوى مداركهم ، يؤثرون اجتياز عهد الطلب سريعاً حتى يدركوا ما تشرئب اليه نفوسهم من نقلد الوظائف والاعمال الحكومية ، على التضلع من العلوم والتمكن في المعارف مما يكسبهم الجدارة للاختصاص بمختلف الفنون والصناعات التي لابد ان تكون بمقتضى سنة الترقي الصحيح . ولما كانوا على هذه الصفة المتقدمة كانت النتيجة ان اخذ كثير منهم يحبطون دون الوصول الى الغاية فيحل بهم الاحباط ، ويخفقون سعياً وراء امانيهم تنشق عليهم الحال ، هذا وقد اجتزأوا ببعض العلم اجتزاء لا يكسبهم القدرة على ضروب الاعمال النافعة والمهن المنتجة . فتراهم يعيشون في الحياة على غير هدى لا يسعون الى غاية مقصودة ولا ينشدون غرضاً بعينه . كل ذلك يحملهم على الانقلاب اعداء مبغضين للروح الغربية ، ثم يسوقهم هذا الى بث اسباب الثورة وبذر بذور القلق الفوضوي . في هذا الصدد اجاد « السر الفرد ليل » في وصفه سيئات التعليم الغربي في ربوع الشرق فقال في شأن الهند : « لامراء ان الجهل انما هو علة شرور كثيرة وبلايا عديدة في دائرة المجتمع ، وقد قام كثير من الفلاسفة وحملة العلم في القرن الماضي ينادون ان التعليم الكافل لتثقيف العقول وتنوير الاذهان هو المخ دواء وافضل ذريعة لشفاء العالم ونجاته مما هو غارق فيه من بحر الضلالة والجهل » ، وقام ساسة خبراء مثل « ماكولي » يبينون للملأ ان التعليم على هذه

الصفة هو السبيل الفضل لخلاص العالم باسره من المعضلات السياسية ، ومن الحال التي قد استفحل فيها امتهان حرمة القوانين والانظمة والاحكام . فلذلك بات ضربة لازب على الحكومة البريطانية ان تجرب القيام بتحرير الهند تحريراً عقلياً ، حامية هذا العمل خير مبرر لحكمها تلك البلاد . « على اننا قد عرفنا بالابتلاء وتقرر لدينا بالاختبار منذ شرعنا نقوم بذلك ان التعليم ، مع كونهِ الدواء الشافي لامراض عديدة وكونهِ ضرورياً لا بد منهُ لاتمام الارتقاء الاجتماعي الصحيح ، فانهُ اذا لم تحسن ادارتهُ كل الاحسان وتوفق وسائل تدبيرهِ القسط الاكبر من الاجادة والاحكام ، انقلب بقوة فعلهِ وعملهِ سمّاً قاتلاً تتولد منهُ جراثيم الفساد والاضطراب ، بعد ان كان خير دواء يرجى بها الشفاء . ولا غرابة في ذلك لان التعليم على هذه الحال اخذ مفعولهُ يسري وفواعلهُ تشتد اختماراً في مجتمع متزلزل الاركان متداعي الجوانب . ثم من شأن هذا التعليم ان ينقض ما ينقض ويحرف ما يحرف ، ويهيج ضعاف الادمغة ، ويستثير مسارب الاطماع ويبعدي الآمال مما لا يستطاع تحقيقهُ في الحال ، فيحمل الاخفاق اهل البلاد على السخط والغضب فتضطرم نار ذلك اضطراماً »

غير ان بعضاً من الغربيين اهل العناية بشؤون الشرق ، نخص بالذكر منهم رجال الاستعمار ، اخذوا يقومون ويقعدون للمخاطر السياسية والاجتماعية المنبثة من جانب هذه الطبقات المشتملة على الذين اتينا على ذكرهم من ذوي العلم الناقص[1] وانشأ المستعمرون يعزون السبب في انتشار روح المقاومة للغرب الى التعليم الذي جاؤا بمناهجهِ واساليبهِ . فاللورد كرومر على سبيل المثال ، يرتاب شديد الارتياب في شأن المصريين الذين تلقوا العلوم الغربية . وقال موظف بريطاني هندي شهير ان علة الاضطراب في الهند ناشئة عن « نظام التعليم الذي نشرتهُ بريطانية في البلاد »

(١) كثير من مؤلفي الاوربيين ورجال سياستهم يحذرون حكوماتهم من اتقان التعليم في المستعمرات ، بحجة أن الغالب على الناشىء المتعلم هو النزوع الى الثورة . اذ كانوا يقرأون اموراً « تسيء عقولهم عفوا » ويقيسون اقيسة فاسدة فيتعبرون ويتعبون . ومن جملة شواهد ذلك تلك المقالة التي عربناها عن « مجلة باريز » والتي صاحبها يشير باماتة اللغة العربية في المغرب واقامة الفرنسوية مقامها بشرط ان يكون التعليم قاصراً على ما يلزم لاماتة هذه واحياء تلك لا غير . والحاصل انهم يريدون تلقيح العلوم الشرقية من بين المسلمين ، ولكن يضنون ان يجعلوا امكانها العلوم العصرية ، لئلا تحيي بها نفوس الامم ، اذ يعلمون انه لا يجتمع العلم والذل في محيط واحد سواء كان علماً شرعياً اسلامياً او علماً اوربياً عصرياً او علماً جامعاً للامرين

وهؤلاء المرتابون المشائمون المستعمرون ، الذين يقولون ما يقولون من ان التعليم هو سبب نشوء الاضطراب في الشرق ، يغفلون عن انهُ لا بدّ لادوار التطور والانقلاب من ان يصحبها شرور وآفات ، وعوارض فاسدة ، بطبيعة الحال دون مردّ . ولكن هذه الحقيقة الكبرى لم تخف على الحكماء من اهل الاستقصاء ، فكان شأنهم في درس تطور الشرق خلاف شأن اولئك المرتابين ، اذ قالوا ان التبدل والتغير في انظمة هذا المجتمع الانساني لا يكون خالياً من نقائص تعتورهُ وعيوب تصاحبهُ ، ومن هؤلاء الحكماء ڤمباري الثقة الكبير الذي احاط بالشرق وشؤونهِ علماً ، وادرك ان في الشرق اليوم مستوًى عليًّا تتجلى فيهِ جدارة الموظفين الوطنيين ، وبهِ يظهر صدق امانتهم ، وهم الموظفون القائمون باعمال الخدمة المدنية في حكومة الهند البريطانية وحكومة افريقية الشمالية الفرنسية (وجل هؤلاء الموظفين من الذين تلقوا العلوم الغربية) ، ففي هذا المعنى قال ڤمباري : « ان الشرقيين المحافظين المتشددين والاوربيين المتعصبين ، يخالون ان الاتيان بتهذيبنا الغربي الى الشرق قد ذهب بفضائل الاسيويين ، تلك الفضائل الساذجة الفطرية ، حتى غدا الشرقي غير المهذب اكثر امانةً واعز شرفاً واشد اباء ، واجدر بالثقة من الاسيوي المهذب على الاساليب الغربية . ان هذا الخيال لأفن وخيال فلعل هذه الاوهام تصدق على اولئك النائلين قسطاً قليلاً من التعليم والتهذيب ، ولكن لا تصدق على الاسيوي التام التهذيب الذي وقر في نفسهِ ان الارتقاء العقلي قائم بجملتهِ على الاساس المكين ، وهو التعليم الوافي الصحيح ، والتهذيب المنظم الطريقة ، والتثقيف السليم الاسلوب والمنهج ».

ثم مما كان شأن النقص الذي صاحب اساليب التعليم الغربي في الشرق ، فالتعليم هو المنهاج الذي لا يستطاع الاّ نهجه ، والباب الذي لا حيدة عن ولوجهِ . وعلى كل فان ما قد بلغتهُ الروح الغربية في الشرق من سعة الانتشار وشدة التأثير ، هما من الاهمية بحيث لو اردنا الكلام عليهِ تفصيلاً استغرق ذلك المجلدات الضخام . ولو سلمنا جدلاً ان الحكومات الاستعمارية قد كان في وسعها ان تحول دون التعليم الغربي الصحيح ، أفلم يكن الشرقي على كل حال قادراً ان يتعلم ما يتعلمهُ على طرق اخرى ومناهج شتى . اذن خير للشرقي وافضل ان يتلقى العلوم والمعارف في كتب مفيدة صحيحة الاسلوب برعاية الاكفاء من المدرسين والمعلمين ، من ان يترك وشأنهُ يتتبع الاساليب الفاسدة والطرق الملتوية ويخبط خبط عشواء .